الجزء الثالث

الفصل الثاني

راح الطبيب الكهل يفحص لغاديدها بعناية بالغة.. وحدق في عينيها:

- لا تخفي عني شيئا.. ما بك من التهاب في حلقك ولكـن الإلتهـاب فـي قلبك.. الداء هنا يا سلمى! ولمس موضع القلب فانفجرت دموعها:
- أحمد!.. أليس كذلك؟ لا تطوي عني ما يزعجك وتكبتينه في نفسك، فيؤثر على صحتك..
- انه لا يفهمني يا دكتور.. أشعر بنفسي غريبة معه.. يحتقر الشعر والأدب والفن وأمجدهما.. يسخر من الشعراء والأدباء والفنانين وأقدسهم.. لقـد وقع على قطعة من شعري نسيتها عفوا في كتاب فهـزيء بـي حتـى أبكاني.. فمزقت في ثورتي أوراقي وأقسمت أن لا أكتـب شـعرا مـا حييت.. وعدت فندمت وبحثت عن أشلاء الورق فمـا وجـدتها.. إنهـا أحاسيسي.. إنها عزيزة علي.. ربما قصرت يوما أن أبلغ مـا أتمنـى، ولكن دافعا أقوى حتى من الحب في نفسي يدفعني للكتابـة.. لقـد نمـا وترعرع حين كنت في لبنان.. لا أريد أن أموت دون ان أترك أثرا.. لقد دمعت عيناي وأنا أستمع إلى قطعة موسـيقية فغـدوت مثـار تنـدره.. فالحساسية في رأيه ضعف مشين.. وأنا أحاول جهدي أن أتخلّـص مـن هذا الضعف فأزداد توتّرا وحساسية.. لا يعتبر سوى المظاهر فـي.. إن بثرة في وجهي تحنقه.. وعيبا في تـصفيف شـعري يجعلـه يستـشيط غضبا.. لا أستطيع أن أتأوه أو يبدو علي وهن في وجوده.. لا يريد منّي سوى الجانب القوي.. يريدني كاملة ولكن بمفهومه هو لا بمفهومي.. ولم أسمع منه يوما ثناء إلاّ على مظهر خارجي في.. لا، لا يمكن أن يخترق حجب روحي.. إنه سطحي ككل الشباب.. وما يثيره الاّ كل سطحي في.. ولكن فجأة يبرق تصرف منه يعلن إخلاصه.. إخلاصا يذهلني.. وأنـسى

كل شيء.. ولا أقوى على فراقه وأحبه أكثر من فني وحياتي وكل ما في الوجود..

وراح يربت على كتفها:

- سلمى!.. يكفيك هذا منه.. ماذا تطلب الفتاة من رجلها سوى الإخلاص؟.. إنّه واقعي عملي.. ولا شك أن مثله يوفّر لك أسباب الهناءة، ويحفظ توازن خيالك الشرود.. وخير أن يبني لك الرجل بيتا من الحجر من أن يبنيه لك قصرا من الأحلام..

- دكتور!.. إن الأحلام تحييني.. إنها غذاء روحي.. مطالبي المادية في الحياة قليلة.. إنني أشعر قسوة الفناء في الأشياء، ولكن مطالبي الروحية لا تقف عند حد!..

وتهللت دموعها:

- كنت أظنه بعيد الأغوار مثلك ولكن خاب ظني!..

- سلمى!.. أتريدين أن تضعي فوق كتف شاب رأس كهل مثلي حنّكته التجارب وخبر الحياة؟..

- يجب أن يجمع الشاب الذي أحب بين الاثنين!..

- نادرا ما تقعين على مثل هذا.. فاقتنعي بما بين يديك فعصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة..

* * *

انه يوم جمعة.. وعما قليل سيبرز أحمد من المنحنى في سيره على الطريق المستقيم، وستراه يخطر وهو يختفي حينا ويبرز أخرى بين الأشجار فتهب لملاقاته عند باب الحديقة.. أو تهيئ له مفاجأة بأن تهرع الى أقصاها من الباب الخلفي ثم تطفر فوق السور المنخفض، تفاجئه من الخلف بإغماض عينيه.. وسيضحك ويقول:

- سلمى.. لا شك في هذا.. فتجيب:

- نعم سلمى!..

وتلتقي الأيدي في تحيتها بشوق أخرس، ويسيران متخيلـين جنبـا الـى جنب، متشاجبي الأنامل حتى المنزل، أو يتنحيان عن ميداء الطريق الى مروج بيت جالا يستظلان بشجرة فنـواء يـستروحان شـذى الخمائـل والعبيثران.. ويشنفان السمع بالهديل والعندلة وزفزفة الـريح وحفيـف الشجر.. ويبتسم الصبايا والشباب المستفردون لهما اذ يمران.. ويتمنـى كل منهم أن ينعم بحبيب.. ويتبعهما "أرقش" العزيـز يتوثـب حولهمـا تضحك عيناه!.. إنه أيضا ذاهب لملاقاة محبوبته.. ويهر هريـرا عـذبا حين يقترب من منزلها الأنيق فتسرع إليه تنتفض ويحك رأسه برأسها ثم يدور يتحسس فراءها الطويل الأبيض بشفاهه ويتناجيان وهما يـسيران جنبا إلى جنب.. ويبتسم أحمد وتلتقي عيناه المـضروجتان المتوهجتـان بعينيها المخضلتين بما يشبه الدموع ويضغط يديها بعنـف.. ويـصمت شفاههما شوق هصور.. ويتنهدان..

ونظرت إلى نفسها في المرآة.. كم ستروقه اليوم بثوبها الجديد الـذي ابتكرت تصميمه وخاطته بنفسها!.. يا لله كم تبدو رشيقة ملـداء تتوثـب حيوية ورونقا.. خضبة الوجنتين انفعالا.. لقد فرشت شـعرها مـدرارا وأرسلته حتى بدا كسبيكة مصقولة معكوفة الأطراف.. وإنها لتنتظـر.. وتنتظر.. وإنها لتهب من حين لآخر لتذرع الحديقة ذهابا وإيابـا.. لـن أسامحه على هذا التأخير..

وتنتجب قضيبا من شجرة وتنكب به على الأرض ساهمة متوتّرة.. ما كان لتوانى عن موعده خمس دقائق..

ويستبين إخوتها على الطريق اللاحب منحدرين من المدرسة فترنـق إليهم النظر وهم يتقدمون وما يلمحونها حتى يتواثبوا معتـصبين حولهـا يقبلونها.. وكانت رجاء تبدو وعكة فتلقي بمحفظتها وجرزتها إلى السور، وترتاح على حافته، وقد تهدلت تنورتها الكحليـة المثنّـاة، وتحـل زر قميصها الحريري الأبيض الذي يحزها عند الجيد.. وتقول:

- الريح بليل برود.. بينما يتواثب هشام نحو المنزل فتهتف رجاء: هشام! أين هربت؟.. تعال خذ محفظتي وإلا شكوتك لسلمى..

وتلتفت رجاء إلى أختها ضاحكة.. وتحدثّها كيف طلب من المعلـم أن يسمح له بالشرب وانتهز منه غفلة وهرب.. وكيف خشي طائلة العقاب فجاء إلى مدرستها لتحميه ويدخل الصف ينتحب ويسأل عنها!..

- ولك يا أختاه أن تتصوري عاصفة الضحك.. أفلت زمام الدرس وراحت الآنسة " مريم" ومعلمه أخوها، تسأله عن خطبه، فأجابهـا بـأن المعلّـم "نجيب" يريد أن يضربه.. وضحكت وهي تسأله: " وكيف علمـت أنـه سيضربك؟.. وماذا فعلت؟.. فأجابها: " ضرب في المـرة الفائتـة ابـن جيراننا دميان لأنه هرب.. وسيضربني حتما لأنني هربـت".. وهـدأت روعه وذهبت وإياها لنتوسط له عند معلمه من النافذة التي تطـل علـى حديقة مدرستنا..

وضحكت سلمى:

- لقد وجد فرقا كبيرا بين حياة المنزل والمدرسة.. إنها طفرة لم يمهد لهـا بروضة أطفال.. وأدامت إليها النظر في سكون:

- رجاء.. إنك لا تأخذين كفايتك من الراحة وأخشى عليك مغبة هذا الأمر..

- يا أختاه!.. ماذ افعل؟.. المنافسة الشديدة تلجئني إلى هذا.. واحـدة فقـط تُنتخب من كل مدرسة لدار المعلمات.. وهذه الواحدة يجب أن تكون أنا.. فما نحن بذوي ثراء لأنتسب إلى مدرسة خاصـة أجنبيـة ذات تكـاليف باهظة.. فلو توانيت وغفلت يوما لنُزعت مني مرتبتي.. لم تعد المـسألة مسألة ذكاء وكفى بل درس مستعر الأداء.. وإلى ذلك فأنا هنـا غريبـة الدين والبلادة.. ومهما بلغ التسامح فالعرق يحن.. فإن لم أبرز حتى أقطع كل احتمال لغيري بالتفوق ضعت.. لا بأس يا أختاه إنها سنة وتمـضي وليس علي من بأس..

- لست أدري يا رجاء لم يعصر الخوف عليك قلبي.. لقد أرسل الينا جودت صديق أديب قصة قصيرة ترجمها عن الأدب الروسي بعنوان الحـصاد،

وكأنني به يحذّرنا من طرف خفي.. فاقرئيها بنفسك وتدبري أمرك.. كم أخشى عليك مغبة الإجهاد.. فتفوزين ولكن على حساب صحتك.. انك لا تنامين الاّقليلا، وتسيرين مسافة طويلة، وتغدين ريقة، وتأكلين نزرا..

- الغذاء يبرد ولا يسوغ.. وأنت تعلمين ما هو غذاؤنا..
- وحين تعودين؟
- أشعر بنفسي مجهدة فلا أشتهي..
- والنهاية؟
- سنة وتنقضي..
- لا تنسي أنك في سن النمو.. وأنت تستهلكين أكثر مما تتزودين.. ارفقي بنفسك!..
- دعينا الآن من هذا.. لقد انتخبت الملكة لحفلة آخر العام.. ففكـري منـذ الآن في تصميم ثوب لائق بي.. لقد خطر لبالي أن ألقي بعضا مما أحفظ من أشعارك في الحفلة فما رأيك؟
- كفى سخفا!
- كل شيء سخيف لديك!.. ألم ترسلي بالله تلك القصة التي كتبتها للنشر؟
- لا تكوني غرة.. إنها درجان طفل في حديقة الأدب، فانتظري حتى أخطر بخطوات شابة..

ولوحت رجاء بإصبعها مهددة:

- اذا لم تفعلي أرسلتها بنفسي!
- إياك أن تقدمي على مثل هذا! فسمعة الأديب تتوقف على أول إنتاجه..

وافتر ثغرها الملموم عن ابتسامة مضيئة وتوهجت عيناها النجلاوان:

- وإن فعلت فبماذا تعاقبينني؟
- يكفي أنني أتألم منك!

ومدت يدها الى جيب تنورتها الجانبية وهي تضحك ضحكة انتصار:

- وحتى لو جاء الرد بقبولها.. ومعها كلمة تهنئة ومكافأة بثلاثة جنيهات؟
- رجاء ماذا تقولين؟ وراحت سلمى تهزها بغبطة وقد تخضلت عيناها:

- بالله أرنيه!.. يا لك من شيطانة صغيرة!
- على شرط أن تكون لي المكافأة فأشتري بها ثوبا لي وآخر لسعاد لأنك لا تستحقينها! هذا سخف، هذر، أليس كذلك؟ يكفيك أنت أن تـري إسـمك مطبوعا على الورق..
- أقبل بشرطك.. ولكن بالله دعيهم يتركون إسمي غفلا..

وفتحت الرسالة وقلبها ينتفض:

- أرحب بالأدب الحي.. وهذه مكافأة متواضعة.. وأتمنى أن تستمري فـي هذا الإنتاج، ويكون لمجلتنا الحظ الأوفى منه.. يا لله! ما كنت أظن..
- والآن عودي وقولي أنت يا رجاء صغيرة وتحبيننـي فتـضعيني فـوق قدري.. عودي ومزقي أوراق أشعارك، واتركيني الساعات أدامج وأرتب المزق المتبددة، وألاصقها..
- يا لله، أحقا تحتفظين بتلك الفلاذ؟
- نعم ونسختها في دفتري.. على كل حال، ومهما كان شأنها في نظـرك، فستكون يوما ما ذكرى عزيزة لديك..

وأشرق وجه سلمى وقبلت أختها في سكون.. وتضاحكت رجـاء وهـي تقول:

- لا يكفي.. أستحق قبلتين.. أليس كذلك..
- لك ماشئت! وأسجدت سلمى نظرها الى الأفق وقالت وهي تبتسم:
- سأخبرك شيئا يا أختاه.. ان الأمر لا يزال خفيا يعتمل ذهني.. وما كنت أريد أن أطلعك عليه قبل أن يبين أثره.. ولكنني واثقة أنه سيغدو حقيقـة يوما.. سأكتب قصة طويلة يا رجاء! وفتحـت رجـاء عينيهـا دهـشة وإعجابا:
- يا الهي كم سيكون هذا عظيما!
- ان الفكرة مختمرة في ذهني.. ولكن الكلمات عصية علي.. تحتاج الـى ترويض كبير كي أذللها.. مهلا يا أختاه.. لن يمضي خمسة أعوام حتـى أجعلها واقعا ملموسا..

- ومدت رجاء كلتا يديها تهز يدي أختها:
- انني أومن أنك ستفعلين!

وسمعت سلمى وقع أقدام فانتفضت مستديرة تستشرف الطريـق، ولكـن خاب ظنها.. انه عابر سبيل في أطمار رثاث.. وبدا الأسى في وجهها:

- لست أدري فيم وني أحمد حتى الآن..
- ما أظنه قادما اليوم، فالشمس تكاد تغيب..
- أحسب الغيوم قد حجبتها.. وعلى كل لن أنتظره.. فليأت ولا يراني.. هذا جزاؤه.. ان المروج النضرة تناديني.. فهل ترافقيني؟
- أفعل..انه يوم سعيد.. وبي رغبة ليهتز الهواء بغنائي..
- وتبعهما أرقش يجر ذيل الطرب للقاء محبوبته.. وغنت رجاء فأشجت.. ان صوتها يكتمل.. وتناقلت الأصداء ارنانها.. وحاولت سلمى أن تسري عن نفسها وتبتهج.. ايه ليس في الدنيا فرحة خالصة.. وحرج صدرها.. ماالذي أخلف أحمد عن موعده؟

وتدامجت السحب.. ام السماء تنـذر بطـلّ.. وعادتـا تغـذيان الـسير وتتضاحكان.. ولكن أعصاب سلمى كانت متوترة تعبا وقلقا، وبـصدرها حنين للبكاء تكاتمه.. فيم انصرافه عن المجيء وما كان يعيقه وابل، ولا هزيز ريح، ولا قصف رعد!. لم يعد من أمل في قدومه.. لقـد غابـت الشمس، والكفهرت السماء، والرذاذ ينقر زجاج نوافذ غرفتها.. وسمعت رجاء في تأهيلها، واذا بنقرة على الباب، فتوثب قلبها.. أتراه هو؟ نعم انه هو يلقاها.. كان صدرها يعلو وينخفض، فتناولها بين ذراعيه معنفا فـي ضمها، وأهوى بشفتيه على شفتيها..

- سأنتقم لشوق ثلاثة أعوام!..

وانفلتت منفجرة بالبكاء:

- أحمد، ماذا فعلت؟ لم سمحت لنفسك بهذا؟ وأجابها بغضب مستوحش:
- ليتني لم آت.. بل ليتني حملت اليك ورصاصـة شـاردة قـد اخترقـت صدري.. خمس ساعات وأنا أغذ السير على قدمي لأراك ساعة وأعود..

التجول ممنوع، ولقد أطلق علي الرصاص فطاش ونجـوت.. ورحـت أزحف حتى تجاوزت موطن الخطـر.. والآن سـأعود وأتمنـى أن لا تريني بعد اليوم!..

وأمسكت بذراعه وهي تنشج:

- لاتكن مجنونا وتعود في هذه الظروف.. ولا تبرر تصرفك بالغـضب.. وتقلب الباطل حقا، والحق باطلا.. وتجعلني في موقف كأنني أنا المذنبة..
- كلاّ بل أنا المذنب.. ولكنني رجل.. انسان.. ومـا عـاد فـي طـوقي الإحتمال.. لقد بلغ هذا الهوى مداه!..
- أحمد انني أعتقك من نفسي ان كنت أقف في سبيل سعادتك..
- وما الفائدة ان كان قلبي لا يود أن ينعتق؟..
- أحمد! ألست انسانة أنا الأخرى؟ ألست أتعذب؟ لكم تمنيت علـى الله أن يميتني أو يبليني لأكون قادرة على إسعادك!..

وترقرقت عيناها، فطوق كتفها وهو يغيض دمعها بأنامله..

- أواه يا أحمد لست والله أدري ما أقول لك.. لقد بلغ هذا الهوى مداه، واني لأجد لذعه في نفسي كما تجده في نفسك.. فيحسن بنا أن نبتعد أحدنا عن الآخرحتى يقضي الله بما يشاء..
- هل أستحق هذا العقاب الجائر؟
- أو ليس جائرا لي يا أحمد؟.. لنواجه الواقع بشجاعة.. لنكسب أو نخـسر الجميع.. فما يدريك أن هذا التوتر المتواصل لا يعوق برئـي التـام؟.. دعني أجرب نفسي بعيدة عنك الى حين..
- ما تنصفين يا سلمى.. ولكن اذا كان الأمر لـصالحك فـسأحمل الـنفس عليه..

كانت ليلة حلكة آرزة ما رنقت لها فيها عـين.. أنهكهـاالهف.. وفـي صدرها شوق لا يحتمل.. رباه! ما وقع في روعها أن في التقاء الـشفاه روعة تفوق الحلم والخيال.. عين المنون ترقبها ويدها الهاصرة ما تشفق على صبا وشباب.. كم أراقت بأنفس وعفت آثارها.. وما عفت بعد فـي

خيال سلمى شواهد المقبرة في لبنان لمن ظفر الظلام بهم مـن صـبايا وشباب.. فأواه ما يكون مصيرها؟ ولم تستعجل الفـراق أن قـدر لهـا الفراق؟..

وراحت ترسل هنينها في العتمة.. أتتلو الأيام بعضها بعضا بغيرارتقاب؟ ومر ت بها أيام قسية، وليال غدرة.. أقساها يوم الجمعة التالية.. لقد بدت واهنة ما تنفر الى عمل أو تسلية، وما يفتر ثغرها عن بسمة..

راحت تردد بتأوهة مريرة مغيظة:

- وفى بوعده! استطاع أن يحمل النفس على هذا البعاد! وراحت تندد بـه بينها وبين نفسها وقد وغر صدرها عليه تحملـه تبعـة الألـم الـذي تستشعره.. يا لقلوب المحبين ما أغربها.. انها حقا تبعث على التسلية لمن هو خلي.. وعبثاحاولت أن تقرأ، وعبثا حاولت أن تصرف النفس عـن التفكير به..

ولكنها كانت أهدأ بالا، وأوفر شجاعة في الأسـبوع التـالي.. بثـت الصفحات شجنها، فخفت وطأته.. ووجدت في نفسها النشاط لتشارك إخوتها اللعب في الحديقة..

كانت واقفة الى طاولة البنج بونج تساجل خالد الضربات.. وراحت تصفق والمضرب في يدها، بينما وثب خالد ليلتقط الكرة التي اختفت فـي حـوض زهر، واذا بالمضرب يطير من يدها.. كيف، ومن جذبه؟.. وتستديرمسرعة وتشهق دهشة اذ ترى أحمد..

- أحمد! ما أتى بك؟
- همست الي الزهور بأنها تحن لرؤياك، وطبعا هي لا تعـرف أن تـأتي وحدها..
- وضحكت سلمى وهي تتناول منه باقة الزنابق في غلالتها الشفافة..
- أنت تضحكين وأنا أبكي.. قال بعتاب حزين..
- يرقص الطير مذبوحا من الألم!.. وأنت ألم تروح عـن نفـسك برحلـة بحرية عانقت الأمواج ولوحتك الشمس وعدت خالي الوفاض لم تـصطد

سمكة واحدة.. لا تنكر.. لقد أخبرني عبد الرحمن بما فعلت الجمعة الماضية.. وأمسكت بيده وسارا في أرجاء الحديقة..

- أما كان الأفضل أن تبقى على وعدك؟
- انني لم أعد.. قلت سأحمل النفس على هذا البعاد فآدني الحمل.. وجئت اليك فاذا بك لاعبء تحملين، ولا عبرة تحدرين وسيان عندك حضوري أو غيابي..
- لا تتجنى يا أحمد وتلومني.. ما أدري ما أقول لك.. فالكلام لايغني.. فلو رأيتني ما بالي خلوا وما جفني يغيض، لأعنفت في تأنيبي لفرط حساسيتي.. ولو كاتمت لوعتي وما سمحت لها أن تشف، لأغضبك أني لاعبء أحمل، ولا عبرة أحدر.. فلأخزن لساني خير من أن أصرح لك بالحقيقة.. فان كان هذا هو الحب في عرفك، اذلال لعناني، وإرهاق لمشاعري...

ورشقته بنظرة حردة، ثم أشاحت عنه بوجهها..

وتأتي رجاء بطاولة حديدية تضعها تحت شجرة ليمون، وتحمل سعاد صراحي ماء برود وكوبين تضعهما عليها، ويتقدمان للسلام على ماجد، فتناول سلمى رجاء باقة الزهر لتدخلها الى المنزل.. ولا يلبث أن يحمل خالد كرسيين لسلمى وأحمد، ويعود ليكمل لعبه مع رجاء..

- لا تحتدي يا سلمى.. فوالله انه بث اللوعة الذي يجري على لساني ما يغضبك.. أنظري الي! أيعجبني أن ألقاك أسبوعا بعد أسبوع، وحين يروق لك الأمر.. لقد طال صبري، وانني أستعجل يوم زواجنا بفارغ صبر!..
- أحمد!.. ليس لك أن تتنصل أنت من المسؤولية فغاراتك علي ما تنقضي ولا تترك لي سبيلا للإنتعاش.. انني أخسرمن وزني بغير سبب معلوم رغم كل عناية، وأحير الطبيب في أمري فما بي من شيء، وأكبد عائلتي من النفقات ما يعادل مصروف العائلة كلها.. وأنت تأبى الاّ أن تقف مني موقف الخصم لا موقف الصديق الودود..

- انتظري وسأفني كيانك.. سأعرف كيف أنتقم منك انتقاما مريعا لا يخطر لك على بال!..
- انك تخيفني.. ويهز رأسه بوجد:
- سأخيفك حتما حين أصهرك بلهيبي!

وترتعش سلمى وتشعر حقا بجذوة الحب اللهب في صـدرها، ويتعـانق القلبان في نظرة طويلة..

* * *